التفسير الماركسي لتاريخ

ففى الايام الخالية كان هناك وضع بدائى كانت فيه العلاقات الجنسية غير المحدودة تسود داخل القبيلة بحيث ان كل امراة كانت تخص كل رجل وكل رجل كان يخص كل امراة. ودليل انجلز على وجود هذه المشاعية هو ان شكل العائلة الحالى لدى قبائل القارة الامريكية والهاوايية يقوم على تحريم الزواج بين الاباء والبنا توبين الاخوة والاخوات ومع ذلك فان الابناء يسمون اعمامهم بلفظ الاب ويسمون اخت الام اما فهم اولاد مشتركون لجميع اخوة واخوات والديهم ، وهذا الاطلاق الذى لا يتطابق مع شكل العائلة الحالى يفترض وجود شكل عائلى زال من الوجود كانت العلاقات الجنسية قائمة فيه بين الجميع فاطلاق لفظ الاب والام والاخ والاخت ليس من باب اطلاق الالقاب الفخرية بل تفرضه واجبات والتزامات محددة ، فالاخ والاخت كانا فى المرحلة البدائية زوجا وزوجة ولا داعى لانكار ذلك طالما أن شعوبا كثيرة فى الوقت الحاضر لاتزال تجيز العلاقة الجنسية بين الاباء والاولاد

علاقة الدم

وبعد هذه المرحلة من المشاعية اخذت اشكال العائلة تتنظم فظهرت العائلة المبنية على قربى الدم . ومعنى ذلك ان تنقسم الجماعات الزوجية حسب الاجيال فالجدود والجدات ازواج فيما بينهم والاباء والامهات ازواج فيما بينهم كما ان جيل الاخوة والاخوات هم ازواج فيما بينهم فى هذه الحالة تنقضى الواجبات الزوجية بين الاسلاف والاخلاف (أما الاخوة والاخوات من الدرجة الاولى والثانية والثالثة وما يليها فانهم جميعا اخوة واخوات فيما بينهم وهم لهذا السبب بالذات ازواج وزوجات فيما بينهم . اصل العائلة ص ٤٣ : ص ٤٤) .

واذا كانت الخطوة الاولى من التنظيم قد ابتدات بالمنظر الى المساواة فى العلاقات الجنسية فى الاجيال وافضت بالتالى الى تحريم زواج الجيل اللاحق من الجيل السابق فان الخطوة الثانية افضت الى تحريم العلاقة الجنسية بين الاخوة والاخوات ، وعندما نقول الاخوة والاخوات فانما نقصد بهم المتولدين من امراة واحدة ذلك انه حسب الفرض سلسلة النسب لايمكن ضبطها الا عن طريق الام طالما ان نساء الجيل الواحد جميعا هن زوجات لجميع رجال ذلك الجيل على التبادل (اصل العائلة ص ٤٦) وانتهى تحريم

فرويد وماركس .. كلاهما حطم المعنى الكبير لروح الوجود فوقع كلاهما فى أخطاء جسيمة .. حطمت نظريته من الاساس . لقد جعل فرويد الجنس سببا لكل شىء .. ووراء كل الدوافع .. ورفض ماركس العلة الاولى للكون ولكنه عاد فى الظواهر الاجتماعية ورغم انفه للاشارة الى السبب الواحد .

الزواج بين الاخوة والاخوات الى تحريم الزواج بين اولاد واحفاد الاخوة والاخوات . وقد نجمت عن هذه الخطوة مؤسسة اهم من القبيلة تلك هى مؤسسة العشيرة التى تشكل اساس النظام الاجتماعى عند اغلبية الشعوب البربرية ان لم نقل عند جميعها وكان لابد ان تنقسم كل عائلة بدائية بعد بضعة اجيال لا اكثر فالاقتصاد المنزلى الشيوعى كان يعين ابعادا قصوى للمشاعة العائلية تتغير تبعا لتغير الظروف ولكنها ثابتة الى هذا القدر او ذاك (ولكن ما ان ظهرت فكرة عدم جواز العلاقة الجنسية بين اولاد ام واحدة حتى اضطلعت بدورها بالضرورة عند انقسام المشاعات المنزلية القديمة فقد كانت مجموعة او بضع مجموعات من الاخوات تصبح نواة مشاعية واحدة وكان اخواتهن الاخياف يصبحون نواة مشاعية اخرى انجلز (٤٧) . ولم تعد المشاعية الواحدة تسمى نفسها اخا او اختا بل رفيقا ورفيقة .

لقد ادى تنديد المجتمع بزواج الاخوة من الاخوات الى عدم امكان ان يكون لهم اباء وامهات مشتركين بل يبقى بعضهم كما من قبل اخوة واخوات وبعضهم بنات اخ وأولاد اخت وهكذا وجدت الحاجة الى ظهور بنات الاخت والاخ واولاد العمة والخال اى ظهرت الحاجة الى فئة ليس لها معنى فى ظل التنظيم العائلى السابق (انجلز ص ٤٨) .

وفى هذه الحالة (حالة العشيرة) يبقى الامر كما كان سابقا بالنسبة للنسب لايعرف الا عن طريق الام فلو اخذنا جماعة من الاخوات من ام واحدة سواء كن من الدرجة الاولى او الثانية مع أولادهن وأخواتهن لراينا تلك الحلقة من الاشخاص الذين يبرزون فيما بعد كاعضاء العشيرة فى شكلها البدائى فان لجميعهن جدة واحدة مشتركة . ولكن ازواج هذا الجيل من النساء لم يعد من الممكن ان يكونوا اخوتهن ولا ينحدرون بالتالى معهن من تلك الجدة . ولكن اولادهم يعزون الى هذه الجماعة لان النسب يسير على اساس خط الام اذ ليس فى الامكان ان يعرف المرء اباه بالدقة المطلوبة لاثبات النسب .

زواج الاقارب

ولما كانت العشيرة انما تتكون من ابناء وبنات ام واحدة فانه مع تحريم الزواج من الاقارب لم يعد يمكن ان يتزوج ابناء العشيرة مع بناتها كما كان سابقا . بل يضطر ابناء العشيرة المنحدرة من ام واحدة ان يتزوجوا من بنات امراة أخرى وتتزوج اخواتهن من ابناء ام اخرى وقد توطد هذا بفضل مؤسسات اجتماعية ودينية على السواء . (انجلز ص ٥١) غير ان الزواج الجماعى كان لايزال باقيا فى الزوجات المأخوذات من خارج العشيرة يكن زوجات لجميع ابناء ذلك الجيل من العشيرة .

الى هذا الحد من الزواج الجماعى (بعد حالة المشاعة البدائية) نكون قد تجاوزنا حالة الوحشية وابتدانا فى مرحلة البربرية وابتدا الانسان يزحف مسرعا نحو تكوين العائلة الاحادية .

لقد ابتدا انتهاء عصر الزواج بين جيل بكامله من الذكور وجيل بكامله من الاناث ، واخذ يظهر نوع جديد من التزاوج هو ما يسميه انجلز (بالعائلة الثنائية) والمقصود بالعائلة الثنائية هو ان يكون للرجل زوجه رئيسية بين زوجات متعددات ويكون للمراة زوج رئيسى بين ازواج متعددين وتكون رابطة التزاوج هذه سهلة الحل وبامكان كل من الطرفين ان يحل هذه الرابطة الزوجية وعندئذ يعود الاولاد لامهم فقط فان جيل الانساب الى الام لم يقطع بعد (انجلز ص ٥٧) .

ويرى انجلز ان العائلة الثنائية لاتشجع

خ الأسرة

بقلم : فضيلة الشيخ سليمان المدني

على قيام اقتصاد بيتى خاص ولذلك لم تقض على الاقتصاد البيتى الشيوعى الذى كان سائدا فى المراحل السابقة (لكن الاقتصاد البيتى الشيوعى يعنى سيادة النساء فى البيت كما ان الاعتراف بالام وحدها نظرا لاستحالة معرفة الوالد بكل ثقه يعنى رفيع الاحترام للنساء انجلز ص ٥٩)

(لقد ظهرت العائلة الثنائية على التخوم بين الوحشية والبربرية وظهرت على الاغلب فى الطور الاعلى من الوحشية وهنا وهناك فى الطور الادنى من البربرية وهى شكل العائلة المميز بالنسبة لعصر البربرية مثلما الزواج الجماعى بالنسبة للوحشية والزواج الاحادى بالنسبة للحضارة · ص٦٥ ؛ ص ٦٦)

ان الزواج الاحادى وهو الذى يقترن فيه رجل معين بامراة معينة بحيث تكون هذه المراة خاصة به هذا الزواج الذى يطلق عليه الماركسيون كثيرا اسم الزواج البطريركى هو المميز لعصر الحضارة ويرى انجلز ان لظهوره سببين السبب الاول ظهور الملكية الخاصة فى الشرق نتيجة لتدجين الحيوانات وتربية القطعان مما ادى الى خلق مصادر جديدة للثروة لم يسمع بمثلها من قبل · فقد وجد الرعاة فى وادى دجلة والفرات وسيحون وجيجون فى قطعان الماشية من الخيل والجمال والبقر والحمير ملكية تحتاج فى تنميتها لاكثر من المراقبة مع كونها تقدم طعاما من الالبان واللحوم وافرا للغاية ·

وفى البداية كانت هذه الملكية تخص العشيرة ثم تطورت بحيث صارت تخص الفرد ولم يبق شك عند انجلز الا فى ان النبى ابراهيم والذى يطلق عليه اسم البطريرك ابراهيم هل كان يملك قطعانا باعتبارها ملكا خاصا او باعتباره رئيسا وذلك لغموض عبارة سفر التكوين كتاب موسى عند انجلز (ص٦٧)

نظام الوراثه

اما السبب الثانى : ان اتصال حبل النسب الامى كان يعنى ان يرث الابن عشيرة امه ولا يرث هذه الثروات الخاصة بعائلة ابيه بل تنتقل الى اقرباء ابيه وبقدر ما كانت الثروات تتنامى كان الزوج فى العائلة مركزا اهم من مركز الزوجه وكانت تدفع الى السعى الى الاستفاده من هذا المركز المرسخ لاجل تغيير نظام الوراثه التقليدى فى مصلحة الاولاد وهو امر لايمكن تحقيقه طالما بقى الانتساب تبعا (لحق الام) بل لابد من الفائدة حتى يتمكن مالك الثروة من توريثها لذريته ولاشك ان الزواج الثنائى فى صورته العليا (صورة تعدد الزوجات عند الماركسيين) قد امكن بواسطته التاكد من الوالد وثبوته (اكثر ثبوتا من بعض الاباء الحاليين) كما يقول انجلز فقد امكن الغاء الام فى النسب وظهر الى الوجود النسب الابوى فاتخذ من اجل ذلك (قرار بسيط يقضى بان تبقى ذرية اعضاء العشيرة الرجال فى المستقبل ضمن العشيرة وبان تخرج ذرية اعضاء العشيرة النساء منها وتنتقل الى عشيرة والدها · وهكذا الغى الانتساب حسب حبل النسل النسائى وحق الوراثة حسب خط الام وأقر الانتساب حسب حبل النسل الرجالى وحق الوراثة حسب خط الوالد · اصل العائلة (ص ٦٩ : ص ٧١) ·

ويصرح انجلز بانه لايعرف متى وكيف تحققت هذه الثورة عند الشعوب المتمدنة لانها وقعت بكلتيها فى عهود ماقبل التاريخ ولكنه يجزم بوقوعها ·

وهذه الثورة يراها انجلز ثورة رجالية ضد النساء فقد كانت هزيمة للمراة التى فقدت سيادتها ومركزها واصبحت عبدة ذليلة لرغائب زوجها ·

فالعائلة الاحادية (البطريريكية كما يسميها الماركسيون) وهى العائلة التى تقوم على العقد المباشر بين الرجل والمراة لم تقم على الحب كما يدعى لها وانما قامت على استغلال جنس لجنس وتحكم طبقة الرجال فى مصائر طبقة النساء وهذا الصراع الذى نشا منذ البداية بين الرجل والمراة هو الذى يتحكم فى المجتمع البرجوازى القائم على الطبقات يقول ماركس (ان العائلة العصرية لاتنطوى على جنين العبودية وحسب بل ايضا على جنين القنان لانها مقرونة منذ بادىء بدء بخدمات الزراعة وهى تنطوى بشكل مصغر على جميع التناقضات التى تطورت فيما بعد على نطاق واسع وفى دولة ملخص كتاب مورغان (المجتمع القديم ص ٧٢) ·

وتجمع كتب الماركسيين على ادانة العائلة المتكونة من ذريتين بموجب العقد على انه عقد بين طرفين غير متكافئين وان الحرية الممنوحة فى قبوله او رفضه هى فرضية وليست واقعية ·

كما ان هذا النوع من الزواج تصاحبه حالتان احداهما البغاء وثانيتهما الخيانة الزوجية وهما متوفرتان بالنسبة للرجل اما بالنسبة للمراة فانها ستنال اقسى العقوبات لو فكرت فى ذلك ·

ولما كان هذا النوع انما يقوم على اسباب اقتصادية هى حفظ ثروات العائلة وتملكها بالارث فانها ستزول حتما بزوال الملكية الخاصة وانتقالها الى ملكية عامة ويبشر الشيوعيون المراة بمستقبل جديد تكون فيه حرة فى علاقتها الجنسية مع اى رجل ترغب يقول انجلز (وهكذا سيتغير وضع الرجال على اى حال تغيرا عميقا ولكن وضع النساء جميع النساء سيطرا عليه هو ايضا تغير كبير فمع تحول وسائل الانتاج الى ملكية عامة

اجتماعية لاتبقى العائلة الفردية وحدة المجتمع الاقتصادية فان الاقتصاد البيتى الخاص يصبح فرعا من فروع النشاط الاجتماعى وتغدو العناية بالاطفال وتربيتهم من شئون المجتمع فان المجتمع سيعنى بالقدر ذاته بجميع الاطفال سواء كانوا شرعيين او غير شرعين وبفضل هذا يزول هم العواقب الذى يشكل فى الوقت الحاضر اكبر سبب اجتماعى اخلاقى واقتصادى يمنع الفتاة من الاستسلام بلا تحفظ للرجل الذى تحبه العائلة (ص ٩٦) ·

التفسير الماركسي لتاريخ الأسرة ..

تحت الضوء

هذه خلاصة للتفسير الماركسى لعلم اجتماع العائلة اضطررت ان الخصها من أوثق مصادرهم قبل ان ابدأ فى نقاشها ·

وفى هذا المجال لا أريد أن أطيل المحاضرة باكثر مما اطلتها بنقاش تقسيمهم للمراحل التى مرت بها البشرية حتى مرحلة الحضارة فلا يهمنى هنا ان تكون ثلاث مراحل او اكثر او اقل كما لا يهمنى فى هذا المجال ان تكون أسباب التطور من مرحلة الى مرحلة اقتصادية ام دينية ام أسبابا اخرى أما الذى يهمنى فهو نقاش هذا الربط بين التطور الحضارى وبين تطور العائلة ·

فنحن لانسلم بأن البشرية كانت تعيش حالة من الشيوعية الجنسية لا حفاظا على سمعة بنى الانسان ولكن من ناحية واقعية ·

فما من دليل على وجود هذا النوع من العلاقات الجنسية الا مايدعى من اطلاق لفظ العم والاب على كل فرد من جيل الاب وكذلك طلاق لفظ الام على كل امراة من جيل الام فى القبيلة الامريكية وسواء كان هذا الاطلاق من باب اطلاق الالقاب الفخرية او كان مصطلحا خاصا فى اللغة بسبب ضيقها أو سعتها فانه لايصلح ان يكون دليلا على شيوعية الجنس فى العصور البداية فان شيوعية المراة انما تجعل الاباء مشتركين ولكنها على أى حال لاتجعل الامهات مشتركات فان كل انسان يعرف الانثى التى ولد منها وان كان يجهل والده كما ان كل امراة تعرف أنسالها من أنسال أخواتها ومورغان يعترف بأن نساء الهنود الحمر يسمين كل أولاد أخواتهن بابنائهن فهل يرغب الشيوعيون بالقول بأن المجتمع البدائى فى الغابات الاستوائية والذى لايعرف الا ثمار أشجار الغابة طعاما كان منظما تنظيما ماركسيا تاخذ فيه الدولة الاطفال لتربيتهم بعيدا عن أمهاتهم ؟!

لقد كان الساميون وبالاخص العرب العبرانيين وفى الطور الذى يسميه انجلز بالطور الادنى من الحضارة يطلقون لفظ الاب على العم اطلاقا حقيقيا · ففى القرآن الكريم قوله تعالى : (واذ قال يعقوب لبنيه ماذا تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق) فهم قد اطلقوا لفظ الاب على اسماعيل الذى هو واقعا عم يعقوب واكثر من ذلك فان عم ليس من الاخياف فان أم اسحاق هى سارة بينما أم اسماعيل هى هاجر · وكذلك فان العرب يطلقون لفظ الاب على العم ففى القرآن الكريم (واذ قال ابراهيم لابيه آزر) ومعروف أن آزر هو عم ابراهيم وأن اباه هو تارح وهذا الاطلاق صحيح ايضا من ناحية لغوية ، ولا يزال قسم من الشعوب العربية يطلق الرجل منهم على أم زوجته لفظ العمة وتطلق الزوجة على والد زوجها لفظ العم كما يطلقون لفظ العم على زوج الام · وصحة هذا الاطلاق تقوم على التنزيل للمعنى فالعرف يصحح تنزيل معنى مكان معنى آخر لوجود مناسبة ما . كما يصححون تسمية الرجل الشجاع بالاسد واطلاق القمر على الفتاة الجميلة لوجود المشابهة وهى فى الواقع معان تنزيلية ، لكن العقل الماركسى المتحجر لا يستطيع التوسع فى باب من أبواب الاداب باستثناء توسعه فى طرائق بث الاحقاد واشعال الصراع بين فئات المجتمع الواحد ·

وأغلب الظن أن اعتماد الماركسيين لهذا المفهوم لم يكن بسبب ما اعطت ابحاث لويس مورغان من نتائج وانما كانت لخرافة دينية ظلت معشعشة فى عقل ماركس وانجلز ومؤدى هذه الخرافة كما فى سفر التكوين وهو الكتاب الذى اتخذه مصدرا فى أكثر من موضع من كتابه ان آدم زوج أبناءه ببناته وان العداوة التى شبت بين ولدى آدم اللذين يطلق عليهما هذا الكتاب اسم هابيل وقابيل انما حصلت بسبب هاتين الاختين · ولكن هذه الخرافة حورت حسب مفهوم ماركس الى مشاعية جنسية بين كافة أبناء وبنات القبيلة لتتلاءم مع ما يسلم به ماركس من نشوء الانسان من مملكة الحيوان ، وبعد أن عثر ماركس على أبحاث مورغان فى كتابه (المجتمع القديم) اتخذه ذريعة وتفانى فى الدفاع عنه مع شريكه انجلز ·

على أنه لا انجلز ولا ماركس ولا غيرهما بينا لنا الاسباب الاقتصادية التى ادت الى تحريم الزواج بين الاخوة والاخوات الاخياف وكيف ومتى تطور ذلك ليشمل كافة اقارب الام من الدرجة الاولى والثانية ، وعلى أساس من النظرية المادية التى تفرض أن لكل التفاعل الاجتماعى أسبابا اقتصادية يعتبر ذلك ثغرة كبيرة فى علم اجتماع العائلة الماركسى ولا شك أن الماركسيين مضطرون فى هذا الموضع الى التسليم بنشوء نظرة أخلاقية اما علاقة بالعوامل الاقتصادية وأن هذه النظرية الاخلاقية الدينية هى التى عملت عملها فى تحديد التفاعل الاجتماعى هذا ، وقد عرفنا مما طرحناه من تلخيص أن هذا التحريم قد ادى الى تطور المجتمع البشرى حسب الزعم الماركسى تطورا خطيرا فقد ظهرت على أساس منه مؤسسة العشيرة والتى تعتبر النواة الاولى لتكون الدولة حسب المفهوم الماركسى · ونتيجة ذلك أن أسباب نشوء الدولة كان بعوامل أخلاقية لا بعوامل اقتصادية · فهل سيجيب الماركسيون عن هذا السؤال ؟!

ان انجلز يعترف بأن العائلة الثنائية لم تلغ الاقتصاد البيتى الشيوعى ولكنه لم يبرر لنا الاسباب الاقتصادية التى ادت الى ظهور هذا النوع من الزواج الا يحتمل وأغلب الظن أنه واقع بأن العوامل الاخلاقية هى التى فعلت فعلها من جديد لتزيل الشيوعية النسائية وتحل محلها نظاما معقولا من تعدد الزوجات او تعدد الازواج ·

اننا لانسلم بمرور البشرية بمرحلة الشيوعية الجنسية لا للاعتبارات الدينية التى تحملها وحسب ولكن لوجود غريزة الغيرة خاصة بين الذكور من الانسان والغريب من انجلز وهو الذى يفترض بنشوء الانسان من مملكة الحيوان ليقرب وجود المشاعية البدائية فى العلاقات الجنسية . يجهد نفسه ليبعد الانسان عن خصائل الحيوان الاخرى من ناحية الغيرة . مدعيا بأن علم النفس الحيوانى لاتنطبق نتائجه على الانسان بدليل قبوله بشيوعية الجنس ففى الوقت الذى تكون الشيوعية البدائية دعوى يراد اثباتها تكون دليلا لنفى نتيجة يتوصل اليها باحثون محترمون فى مجال بحوثهم أليس ذلك مصادرة سخيفة ؟

أما قيام الزواج الاحادى وبقاؤه انما هو على مبررات اقتصادية تقتضيها المصلحة البرجوازية فى مجتمع يقوم على صراع الطبقات فأغلب الظن انها دعوى يعجز الماركسيون عن اقامة البرهان عليها ففى روسيا اليوم وهى البلد الماركسى لايزال هذا النوع من العائلة قائما على الرغم من تحويل وسائل الانتاج الهامة الى ملكية عامة واذا كانوا قد الغوا ورقة العقد الكنيسية فانهم أسسوا مكاتب خاصة لتوثيق عقود الزواج وهذه المكاتب موجودة مثلها فى كافة الاقطار الرأسمالية والبرجوازية فليس كل العقود التى تجرى بين البرجوازيين عقودا كنيسية وهذا دليل على انه لا الرجل ولا المراة يرغبان فى انهاء البغاء والخيانة الزوجية عن طريق اعطاء مزيد من الحرية فى العلاقات الجنسية·

وفى الختام أود أن أثير نقطة مهمة هى انه لا ماركس ولا انجلز ولا غيرهما من الباحثين الشيوعيين قد تعرضوا للعائلة فى المجتمعات الاسلامية فهل تراهم لم يسمعوا عن وجود هذه المجتمعات أم انهم لايتمكنون من التحايل على تاريخها وتشريعها لاصطياد أمثلة تصلح أن تقدم دليلا لاثبات نظريتهم المادية ؟!